سمر يزبك

مفردات امرأة

(قصص)

مفردات امرأة (قصص)
سمر يزبك
الطبعة الاولى ٢٠٠١

توزيع دار الكنوز الادبية
ص.ب/ ٧٢٢٦ ـ ١١
هاتف / فاكس ٧٣٩٦٩٦
بيروت ـ لبنان

" كنت أكتب لأنتشي ولأمزق الصلات أكثر فأكثر بيني وبين العالم الذي يرفضني وأرفضه "

جان جينيه

سرية جداً

بالكـــاد تحملت ثقل جسمه المتراخي فوقها وبدأت تطلق أنفاس اختـــناق، بينما كان عرقه يتصبب في تعاريجها القصية. أبعدته بحركة مفاجئة من يدها. نزل عنها واتجه إلى الحمام.

كـــان الغليان يسري فيها وفورة غامضة تحرك مسامها تجاه وديان مجهولة. ثمة لذة أتقنت بصمت دورها بين دمها وأطراف أصابعها حتى أعمـــق توضـــع لرعشـــاتها السرية. عاد إلى السرير ولم ينبس بحرف. كالعـــادة غطى جسده باللحاف وغاب مع النوم في رحلة مؤقتة لموته، تعـــرف ما سيحدث.. تنـــزل من السرير وتشم رائحة السائل المنوي فتكويها حرقة تحاول تهدئتها بوضع ثوب خفيف على جسدها، تتأمله كشيء من الأشياء المحيطة بها وتغلق الباب عليه.

الطفـــلان نائمان وفي روحهما مدارات متناقضة لجسدها المرتعش رغـــبة، عـــلى الرغم من الألم الذي اعتادته في كل مرة، لكن أصابع الرغبة التي بدأت تتحرك فيها تغريها بالمتابعة، دائماً على هذا الحال منذ الليـــلة الأولى، لا يترك لها فرصة التجدد في عوالم مثلثها المحترق ينقض بفحولـــته فتشـــعر أن اغتصاباً موجعاً يلاحقها منذ الطفولة ويمتد في

عظامهـــا حـــتى لحظـــة ولوجه إياها. تتظاهر باللذة وتتأوه بين يديه ليتركها سريعاً وهي تحلم بالدخول إلى الحمام.

في الحمام تكون الرغبات قابلة للتحقق دائماً.

كـــان الأمـــر مختـــلفاً قـــبل أن يأتي زوجها بهذا الشيء المسمى ســـتالايت. تفـــتحت رغباتها مع العالم الجديد القادم إليها عبر شاشة صـــغيرة. بدأت تتكلم لغة مختلفة مع جسدها. تنتظر أطفالها وزوجها ليـــناموا، تقلب المحطات من عري إلى آخر، تندهش وتدخل سراديب مغـــلقة لأسرار الجسد. أوضاع مختلفة لنساء ورجال يمارسون الجنس كما يتنفسون ببساطة، تغيب مع لذتها وتتفتح بحب مع كل جزء فيها. تعشـــق هبوطها من أعالي البراكين إلى أطراف أصابعها، تلك الأصابع الـــتي تغازلها في أي وقت. عندما تنظف الصحون وتكنس الغبار تظل عيـــناها معلقـــتين بالأصـــابع التي تمنحها النشوة وتصل جسدها بحبله السري الحقيقي. تقبل أصابعها وترطبها بشفتيها تترك لها حرية اللعب عـــلى الصدر ثم تتزلق إلى واديها السحيق. تخلع ثوبها وتقف أمام المرآة وهـــي ترســـم في خيالهـــا صورة رجل يقبلها من شعرها حتى أصابع قدميهـــا. نفـــس الصـــورة التي تخيلتها وقتما كانت في بيت أهلها. صـــديقاتها قلن لها أن الأمر سيتغير بعد الزواج وأن لذة ستشعر بها من أعلى نقطة في جسدها هناك حيث يقتحم رجلها عالمها السري، وهي لذة مغايرة عن التي تشعر بها مع أصابعها. إحدى صديقاتها قالت :

ـــ بعد الزواج هناك شيء في الرجل يجعلك تشعرين بالامتلاء.

لكن الأمر لم يتغير بالنسبة لها. تزوجت وأنجبت طفلين وما تزال تعيش نفس اللذة التي مارستها مع أصابعها. كانت سعيدة بالفوران مع سـرها لكـنها في كل مرة وما أن ينتهي الفوران ذاك حتى تدخل مع بلاط الحمام البارد في وحدة حال.

طفل

قيل لي أن وجهي يشبه وجوه مصاصي الدماء.ولأنيابي لون الموت. الكثير من الكلام سمعته عن شكلي القبيح وتحولاته، منذ مغادرتي البيت. لكن لم يصبني الحزن، كنت أفضل التحول إلى جرذ على البقاء في البيت.

الساحة الواسعة تمد أفياء الطفولة إلى روحي. البركة الزرقاء والياسمين المتهادي على الماء العذب. القرنفل المتكور في الزوايا. رائحة الغسيل وشاي الصباح. صوتي ليلاً حين أدحر به عتمتي. كم أحن إلى ذلك العالم ... لا.. لا ... هل قلت أحن ؟ ... !.. إني أكرهه، والأرض كلها لن تكفيني لأنشر كرهي فوقها.

كان حلماً؟ ليته، لم يكن حلماً، كنت أعي ما يحدث وأفهم ما يدور وأشم روائحهم وأسمع نخيرهم وصرخات أمي وخالتي.

الفناء يعبق برائحة الياسمين. كل شيء مرتب ونظيف، مصنوع بأناقة. الأطفال الأربعة ينطون حول بركة الماء. رجل ضخم الجثة بشوارب معقوفة وبسمة طافحة بالاطمئنان. تروح أمي وتجيء طيلة النهار.. تغسل، ترتب و..

ـــ نارة يا مرة.

تســـرع أمي وتضع الفحم على النار. تحضر إبريق الشاي، بينما خـــالتي تجهـــز غرفة العمليات كما أسميناها في الأزمنة الغابرة. نلعب لوقـــت قصـــير، ثم نـــأكل، وتأخذ أمي دوراً حقيقياً في عالم الأمومة والعمل المترلي. خالتي تتفرغ لدور الزوجة الثانية. فردوسنا الحقيقي لم يكـــن يـــتجاوز الساعة، وذلك عندما نترك صباحاً في الفناء ريثما يتم الانـــتهاء من التنظيف. لم أكن أعرف وأخوتي عن أبي سوى جلوسه عـــلى المصطبة وراء نرجيلته وشايه الأسود. كرهته دائماً، ودعوت في ليلي الطويل لموته. لا أذكر أننا جلسنا معه يوماً، كان يمر بالقرب منا، كأنه لا يرانا. وإذا حدث وغضب، أشبعنا ضرباً حتى تخلصنا خالتي أو أمي.

في ذلـــك النهار كان لدينا عيد حقيقي، فالانشغال بالتنظيف يعني أنـــنا لـــن ننال حظنا اليومي من ضرباته القوية، لأنه سيكون مشغولاً بالضيف القادم.

بدايـــة، حـــشُـــرنا في غرفتنا الضيقة. سكنتنا الدهشة ونطّ فينا الفضـــول لمعـــرفة ما يجري، ولماذا يتم حبسنا على هذا الشكل. ومع الـــتكرار والتلصـــص اتضحت الصورة. نُحشر في الغرفة، يدق الباب رجـــل غريب، يناول أبي رزمة من النقود، يختفي بعدها مع خالتي أو أمـــي، ثم يخرج ويناول أبي رزمة أخرى. عند تلك اللحظة يفتح الباب لنا، تخرج أمي من الغرفة، أنظر في وجهها وأشعر بالإقياء، وعلى الرغم مـــن أني كـــنت صـــغيراً إلا أن إحساساً غريباً ما زلت أجهل وصفه

وتحديــده كان ينتابني. أشعر برغبة ملحة لتدمير كل ما يحيط بي، ولا أدري كيف كانت الأمور ستنتهي لولا ما حدث في ذلك اليوم المحفور في سراديب الذاكرة.

الأصــوات تعلو.. نتكور نحو أنفسنا لمعرفتنا المسبقة بما سيحدث بعــد ذلــك. نغرق بالقرف والرعب والبكاء. قال أخي الأصغر ونحن نسبح بإحساس غامض بالجريمة :

ــ صوت من هذه أمي ... أم أمك ... ؟

ترنح أخي الكبير وانتفض في الغرفة وبدأ بضربنا والصراخ علينا. فتح النافذة وكسر الزجاج ونط إلى الفناء صارخاً بالرجل الغريب :

ــ اخرج من هنا يا ابن الكلب.

كيف تجرأ أخي على فعل ذلك ؟ لم اسأل نفسي لأن غلياناً أكبر مــن وصفه اجتاح البيت في تلك اللحظات. اللحظات التي لم ينتبه لها أبي وأمي وخالتي عندما كنا نكبر ونخرج من غوالم الطفولة.

سمعــه أبي، ركــض والخوف يلفه . زلزل الأرض تحت أقدامنا بصوته، ارتجفنا وبدا كمارد شرير سيبتلع البيت بما فيه. تمنيت التحول إلى وحش كالذي أراه في برامج الأطفال لأقتله بضربة واحدة.

أمسك أخي وبدأ يدوسه ويركله، ويقذفه من جهة لأخرى. ارتطم رأس أخي بالجدار وبدأت الدماء تتدفق. صرخنا. خرجت أمي نصف عاريــة. لحقــتها خالتي مع شتائم الرجل الغريب. رمت أمي جسدها فوق أخي الذي بدا أنه فارق الحياة، لكن جنون أبي لم يتوقف. استمر

في الضرب. لا أدري كيف لمعت قطع الزجاج تحت الشمس وبدت حادة قوية كذراع وحش أسطوري. اندفعت إليها وأخذتها بين يدي، وكسم قاتل اندفعت نحو جسده. بدا رجلاً شريراً بعينين جاحظتين. تمنيت لو كنت أكبر قليلاً لأمحوه من بيتنا، ولكني بالكاد وصلت إلى فخذه. سأمزق رجليه وننتهي من شره، هكذا فكرت.

الطعنة الأولى في فخذه. خدش أذني صوت الزجاج في اللحم، وهممت أن أمزق بطنه. ترنح وسقط صارخاً، انتهزت الفرصة واعتليت كرشه وبدأت تمزيقه. بدأ الزجاج ينغرس في جسدي ويجرحه، تدفقت الدماء من كل الأمكنة ، وساد المكان ذهول أخرس.

التقط أخوتي أيضاً قطع الزجاج، ولدهشتي، رسموا على جسد أبي خرائط بلا حدود.

وهكذا، منذ ذلك اليوم، تحولت إلى جرذ.

مفردات امرأة

"عــندما تكوني سجينة، عزلاء خلف الجدران، محشورة في حــريم، فأنت تحلمين بالفرار، يكفي أن تصوغي هذا الحلم لكي يتفتح السحر، وتختفي الحدود، الأحلام يمكن أن تغير حياتك، بل ربما أمكنها أن تغير العالم، في النهاية، والتحرر يبدأ عندما تأخذ الصــور في الرقص، في رأسك الصغير، وتبدئين في ترجمتها إلى كلمات.

الكلمات لا تكلف شيئاً!"

فاطمة المرنيسي

مفردات امرأة

مفردة ١

أمي التي ما انفكت توبخني قائلة :

ـ تعلمي أن تكوني بنتاً واقعدي في البيت كامرأة محترمة، فوجئت، صبيحة أحد الأيام بشارب وذقن يحتلان وجهي.

مفردة ٢

جاءني ليلاً بدموعه، فلقت له الأرض نصفين، أسكنته عرشها. غسلت قدميه ببخار الياسمين وحممت جسده بالغار والشهقات. فردت له شعري ملاءة وعطرت سريره برائحة القهوة. هدهدته حتى نشفت دموعه. أتاني بعد أيام حاملاً عشرات الكتب عن حرية المرأة.

مفردة ٣

أشمه.

الـــروائح أقوى الحواس. تكويني القبل المحمومة في الفراغ. أتلمس الجدار، أحاول إيجاد مادة حقيقية منه. القمصان، الأحذية، البصمات. كفـــه عـــلى الجدار ألمسها، أمسك وجوده، يا لدفئه. يقشعر جسدي ويـــذوب فمي حلاوة ويعتريني دوار. تنزل اليد إلى العنق، أعلو ... ثم الـــنهدين.. تطير بهما إليه، أتكور داخله. تنزلق اليد بطيئاً نحو غلياني، أفـــور بـــه، أمواج تنفسه تخلق جنين النشوة. ترتجف اليد وتتحول إلى طنين فراشة غائبة.

مفردة ٤

أخـــيراً دق بابي كائن حي. فتحته. وجدت عرافة تزحف نحوي مثل دودة الأرض. أمسكت يدي وقرأت كفي. باحت لي الكثير عن لعـــنتي الأبديـــة منذ التفاحة الأولى، ثم أخبرتني عن خراب أكبر ينتظر أيـــامي. رحلت العرافة وهوى جسدي في فراغ البيت. فتحت كفيٍ لأقـــرأ لعنتي، ذرفت دمعة، تدحرجت الدمعة، لحقتها، طاردتها طويلاً، وعندما التقطتها بعد زمن، وجدت طفلاً بين أصابعي.

مفردة ٥

بعـــد رحيلـــه، تخيلت أن الأرض ستأخذ شكلاً هندسياً جديداً، والطـــرقات ســـتلم نفسها لتتحول مدينتي إلى مدينة نائمة. وأغرق في سرير من الورود ثم أنام مئات السنين.

لكن ذلك لم يحدث.

كـــل مـــا في الأمـــر أن صديقتي عندما صافحتني هربت فزعاً. واخـــترقت يدها الفراغ. لم أعد سوى فستان وحذاء، مع وخز رائحة حادة. تلك الرائحة كانت رائحته.

مفردة ٦

كـــل الأثواب التي اشتريتها لم تخلق الفرح في روحي. حتى رأيته وراء الواجهـــة الـــزجاجية، أزرق بأكمام شفافة، يتلألأ أمام العيون. دخلت المحل وطلبت الفستان من البائع. أخذته بكيسه الأنيق. أسرعت نحو بيتي. فتحت خزانتي، وانزلقت في فستاني الجديد.

كنت أغرق.

مفردة ٧

أشـــكال هندســـية متحولة، تأخذ بالضيق حول جسدي. ترسم لـــنوافذي أفقاً بلا ملامح. إنها الغرفة تضيق.. تتسع. تضيق فأنكمش،

تتسع فأركض. أبحث عن المدى في نوافذي. تتحول النوافذ إلى جدران وتفلت الغرفة من حالة الاتساع آخذة شكلاً أخيراً من الضيق. بالكاد أتنفس. أقف. يحصرني الهواء، أنزلق عبر مسام جلدي. أتنفس بصعوبة. ما الذي يحدث في الخارج ؟ قرع طبول وصياح قردة، وصورة ضخمة تبتلع ما تصادفه أمامها. الصورة تكبر وتكتمل. أجهزة ضخمة، رجال بلون الفضة، أكوام نساء عاريات يحترقن بالبخار المتصاعد من شقوق الأرض، جرافات تأخذ في طريقها المدن والناس.

الصور تضحك وتمد لسانها في وجهي. الجرافات تقترب. ألوذ بجدراني، ويتعالى الضجيج. أحاول الاسترخاء. ينهار الجدار الأول، والثاني، أهرب إلى ما تبقى، لكنني أجد نفسي، مع الغرفة والجدران والتراب، في فم الجرافة.

مفردة ٨

لأنه حبيبي بللني الياسمين ذات صباح بركوة مطر. وهوى بي من السماء السابعة نحو أرصفة اليباس.

مفردة ٩

عادة ما أستيقظ وأحمل نعاسي إلى الشوارع، إلا هذا اليوم. حملت نعاسي وبيتي واختبأت في أروقة الرأس، بعيداً عن بوح القلب. كان الظلام على أشده.

مفردة ١٠

امرأة من غيم

من زجاج.

من ورق.

لا فرق.. سأتبخر ... وأنكسر ... وأتمزق. لست سوى ذرات متناثرة في الفضاء الواسع. ذرات لا تلتقي إلا صدفة. وإذا حدث والتقت كان شررها كلمات دمع تترك مع انفجارها صدى آهة طويلة.

أفتش بين الزوايا الأنيقة عن غبار أزيله وألهي روحي به.. لا أجد سوى اللمعان.

أعيد تنظيف البيت مرات عدة. أراقص الكراسي، وأحضن آنية الزهور الفارغة. أداعب الملاءات والأسرة وأنام تحت قوائمها لأتقيأ زمني. لا يخرج من معدتي شيء. أنهي تنظيف الغرف وأتجه إلى المطبخ. ملاعقي الفضية الأنيقة تذوب مع لمساتي، وترّقص أصابعي في نهر الصابون، ومع أظافري تعزف لحناً صاخباً. أراقص البلاط، أميرة تذوب وحدة، وأفرش وجهي في الصحون. أكنس الأرض ويلفظني الزجاج نساء عديدات. سيدة الأشياء، ملكة الأدوات، حاكمة المطبخ والغرف النظيفة، سرعان ما ينتهي ملكي مع تنظيف آخر وعاء.

أعاود الاستلقاء على الأريكة.

تغـــريني الســـتائر بالتنظيف، أهرع إليها، تنساب هي الأخرى نحـــوي وتلـــتحف جسدي. من حفيفها الناعم ينبعث العواء إلى كل الجهات.

مفردة أخيرة

أيقظـــتني الطرقات على الخراب، حملتُ أنوثتي وحفرت قبري، في الدمار الجديد، غطت الأمكنة ايقاعات رتيبـــة.

عرس

عـــندما نزعت طرحتها عن رأسها، وبدأت تجوب البيت غرفة غـــرفة، مطـــلقة نشيجاً مؤلماً من صدرها، ظن أهالي القرية أنها امرأة مجـــنونة، وتحســـروا على أمجد الحمدان، عريسهم الشاب على بلوته الجديـــدة. لم يعـــرفوا مـــاذا يحدث، فالحركة السريعة للعروس التي انتفضت حالما وصلت بيت العريس كانت مذهلة. وبقدر ما راحت تلف وتدور كجنية صغيرة حول البيت وتتمتم بكلمات غير مفهومة. راح الـــناس يبتعدون عنها متمتمين بكلمات غريبة أيضاً لن يستطيع كـــائن بشـــري أن يفهم إلى أي حد كانت الغرابة بينهما متشابهة. توقفـــت العـــروس وســـط الساحة فوقفت ورفعت يديها بحركة مســـرحية. صـــدرها يعلو ويهبط، عيناها تفيضان بالدموع وصوتها يـــردد مـــع نسائم الليل حسرة الصدور المتلهفة لرقص طويل وممتع. تقدمـــت نحو عريسها، تأملته بحنو. كم أحبته، عندما جاء إلى بيتهم قـــبل ســـنوات من بلده المجاور حاملاً بعض الأغراض من أقربائهم اندفعت إليه بطريقة لم تفهم معناها. آلمها صدرها وشقت روحها في الضـــلوع دروباً لم تعرفها من قبل، وبدا كائناً موجوداً فيها منذ أن

فتحت عينيها لأول مرة على النور. دخل نبضها السري وأحال فراغ الأيام إلى لحظات حب، ولأنها لم تحاول تفسير الأمر اعتبرته جزءاً عتيقاً من يومياتها. بعد زمن، وفي لقاءاتهما السرية كانت تحرص على تلاقي عينيهما لساعات طوال، هامسة له : لندخل في أرواحنا من عيوننا مباشرة.

كانت تمسك يده ثم يجلسان كعابدين بوذيين. تتقارب ركبتاهما ويحدق أحدهما بالآخر لساعات حتى يشعران بالدوار. تفيض الدموع منهما، فتقرب رأسه إلى صدرها وتضمه، فتشعر أن حرارته ستدخلها مدارات غريبة وغامضة لم تستطع يوماً تفسيرها. الآن، وسط الساحة، في قرية جبلية وبلد غريب تنظر إليه بخشوع وتتذكر كم تحبه، تفهم الانقباض المرعب لصدرها عندما يضع رأسه عليه، الآن فقط تستطيع أن تصرخ وتتحرر من عذابها بانجرافها نحو رجل أدركت منذ الثانية الأولى للقائه أنها ستركض وراءه طوال العمر وتغوص في عوالمه وحيدة، وبين الحين والآخر تخرج رأسها لثوان، تتنفس الحياة وتعود إلى أعماقه.

في إحدى المرات، وبينما كانا يتهامسان قالت له :

هل تعرف ما غرابة الليلة الأولى للزواج ؟ ! لم يجبها، كان مفتوناً بها بصمت.

قالت : لأول مرة يكتمل كائنان بتداخل أعضائهما، يصبحان إنساناً واحداً، وفي اللحظة التي يرتفعان سوية فيها نحو وحدتهما يتشكل كائن جديد، إنسان نقي من كل الشوائب.

تتذكر كلماتها وتود لو يعود إلى ماء رحمها تماماً كما كان من أزمان مضت. صرخت ببكاء حاد :

ـــ من تريد أن تتزوج حبيبي .... شاب ولا كل الشباب.. زينة الشباب يا صبايا.. إني أبارك زواجه وحياة أمي.

ما إن انتهت من جملتها حتى فغرت الأفواه، وبدأ الناس يتطلعون إلى بعضهم البعض. هل يعقل أن تطلب عروس في ليلة عرسها هذا الطلب ! أمها المذعورة اندفعت نحوها وهزتها من كتفيها :

ـــ بسم الله عليك يا حبيبتي.. ماذا أصابك ؟

ـــ لاشيء يا أمي، ولكني لن أتزوج من الرجل الوحيد الذي أحببته على وجه الأرض، صرخت واندفعت نحو البيت الذي كان مقرراً أن تكون سيدته.

ـــ انظروا هذا البيت بيتي.. أنا من بناه مع والده وأشارت إلى أمجد، غرفة ... غرفة، بنيناه..

اندفعت نحو شيوخ القرية بأغطية رؤوسهم البيضاء ولباسهم الأسود. أمسكت بيد أحد أقربائها وقالت :

ـــ ألا تصـــدقني أنـــا ســـيدة هذا البيت.. أتذكر لون الباب الخارجي كان أزرق فيما مضى، بدأت تقشط اللون الأبيض عن الباب حتى ظهرت طبقة مهترئة من الأزرق وفاضت من عينيها الدموع..

قـــلت لكم.. عرفته لأنه موجود في ذاكرتي.. أسفل المنحدر وراء الــبيت شجرة أم عباس أليس كذلك ؟ الشجرة التي كنا نقضي معظم لياليـــنا تحتها.. متُّ وأنا ألد حبيبي، صرختْ، ووقف الشيخ مذهولاً لأن كل ما تقوله الصبية صحيح.

بـــدأت قطـــرات الحزن تتساقط من أعين الناس وأخذ شبح قصة حزيـــنة وغريبة يلوح أمامهم. ولأنهم تربوا على أفكارهم الخاصة فقد شعروا بالخشوع والرهبة مما يحدث، صارت العروس تروي حكايا عن حياتهـــا الماضـــية في قريـــتها وهم يتنهدون. وبين الحين والآخر يطلق العجـــوز زفرة ألم وهي تروي تاريخاً بعيداً، هذه الصبية الآتية من بلد غريب لا يربطهم بها سوى امتداد طويل لطائفتهم على طول الساحل الشـــرقي للمتوسط لعدة بلدان متجاورة، بالإضافة إلى زيجات مستمرة في ما بينهم تجعلهم أقرب فأقرب.

بقيت تصرخ وتلهث راكضة من مكان إلى آخر وكأنها تكتشف الحيـــاة لأول مرة. متعة النفاذ إلى الماضي وألم الإحساس بحياة أخرى جعلاها تطفو على نهر من القداسة.

أمجـــد الحمـــدان لم يكن موافقاً على ما يجري، جلس القرفصاء ووضع رأسه بين ركبتيه وطفق يبكي بحرقة طفل صغير..

ـــ أنت مجنونة بلا شك ما الذي تهذين به ! أفيقي إنه عرسنا.

ـــ لست مجنونة يا حبيبي، أنت ابني. أقسم على ذلك. أراك الآن تماماً بعد أن خرجت من رحمي، كنت متعبة و لم أستطع حملك بين ذراعي. لم أعرف أني سأرحل عنك دون أن أشم رائحتك.

نظر إليها ببلاهة، قيل له أن أمه ماتت فور ولادته ولكن أيعقل ما يحدث الآن ؟

أراد أن يفرق الناس، كلاً إلى بيته، ويدخل مع زوجته لتهدأ قليلاً. كان مستعداً، رغم ما حصل، أن يتجاوز كل شيء ويتزوجان، لكن النسوة أحبطن محاولته ببكائهن عندما اندفعت إحدى الأمهات وهي تزغرد وتجر ابنتها من يدها.. (قيل فيما بعد أن هذه المرأة كانت الصديقة الحميمة لأم أمجد قبل وفاتها) :

ـــ تكرم عينك يا أم أمجد يا طاهرة أهلاً وسهلاً فيك بيننا، هذه ابنتي عروس لابنك.

احمرت الفتاة الصغيرة ووقفت بوجوم. ثم اقترب والد الفتاة من أمجد وعروسه وصافحهما، وضعتْ على رأس الفتاة الصغيرة وانسلتْ العروس من بين الناس نحو شجرة أم عباس وجلست تبكي روحاً ماضية سلبتها حياتها.

الآخر

أسمع وقع خطواته حادة تقطع جسدي. أفر من شارع إلى آخر علني أفقده. عبثاً أحاول، خفت من معرفة هويته و لم أجرؤ الالتفات إلى الخلف كي لا أبصره. أربط أجزاء جسدي بعضها بالبعض وأكتم تنفسي خوفاً من خطواته الرتيبة، التي صارت تدق في رأسي كرقاص ساعة عتيق، نحو اليسار، ثم اليمين. أهوي نحو العدم وأنكمش بوجوده فقط.

ما الذي يريده مني ؟ و لم يتعقبني ؟ هل يكرهني ؟ أيريد قتلي ؟ ما يحيرني صمته ورائي. ما إن أتوقف حتى يتوقف. ألتفت إلى الوراء يلتفت إلى الوراء، ويقوم بأداء نفس الحركات التي أقوم بها.

خائف ومتوجس من حضوره واختفائه بين ثناياي، يدان غليظتان تخنقاني وتلفان جسدي بنكهة موت بطيء. لم أعد أستطيع التركيز، وفكرت أني مصاب بنوع من الفصام وقررت التفرغ لهذا القذر. صرت استيقظ لأراه وأثبت وجوده محيطي. عندما أفقده ألاحقه، أطارده وأبحث عنه في كل مكان. انتقلت الحمى إلى جسدي، وهجرت أسرتي وعالمي باحثاً عنه. أطارده ويطاردني، لا بد من معرفة

سبب ملاحقته وتدميره حياتي. بتُّ أخاف من وميض حتى الفكرة في ذهني، فربما يعمد إلى اقتناصها.

في أحد المساءات وبعد أن ركض ورائي توقفتُ فجأة. أدرت رأسي نحوه، أدار رأسه هو أيضاً، لكني لم أترك له الفرصة للهرب وركضت باتجاهه. ركض أمامي، لحقت به، ولم أعرف كم من الوقت مر حتى صرنا وجهاً لوجه في ساحة المدينة المزدحمة بالناس.

كان رجلاً مختلفاً عني بكل تفاصيله، حصرته في زاوية وبدأ عراكنا. البشر ينظرون إلينا بلذة الاستمتاع بمشهد القتل، ولم يحاول أي منهم التدخل. هتفوا لكلينا، ومن أعينهم فاضت شهوة الموت. عندما لمع نصل حاد في الشمس بيد أحد المتفرجين أدرت وجهي نحو الجهة الأخرى وتمنيت لو أني فعلاً في كابوس ينتهي حالما أفتح عينيَّ فتحتهما وإذا بالرجل صاحب السكين يقذف بها نحونا، وحتى تلك اللحظة لم أعرف من التقطها، أنا أم هو، لكن دماء غزيرة بدأت تتدفق فجأة من جسدينا، ودوار حاد لعب فينا وآخر شيء لمحته قبل دخولي الطويل في الغيبوبة هو رأس يتدحرج إلى نهاية الشارع.

أفقت بعد مدة لم أستطع تحديدها.

كانت الملاءات نظيفة والأسرة مرتبة وروائح أدوية تعبق في المكان. ما الذي حدث؟ هل قتلته؟ تخيلت أن شرطياً يقف بباب غرفتي وحالما أستعيد عافيتي سيزج بي في سجن معتم استعداداً لشنقي. اجتمع حولي أناس أراهم للمرة الأولى في حياتي، وبدأتْ الممرضة بفك الضمادات. اقتربتْ مني ومسحتْ وجهي بالماء وطلبت الإذن بحلق

ذقـــني. وضـــعتُ رأسي في حضنها الرجراج وبدأتْ بوضع معجون الحلاقـــة حول ذقني. انتزعت من حقيبتها مرآة صغيرة وبابتسامة حانية طلبت مني مراقبتها.

عندما وضعتُ عيني في المرآة فوجئت بأني كنت أحمل رأسه.

إفراج

قلت لك يا عم خبرتك غير مطلوبة، ووضعك لا يناسب شركتنا.

ـ لكني محاسب من الطراز الأول، إسأل عني، أنا من الأوائل الذين حازوا على ليسانس تجارة في البلد.

ـ أعرف، أعدت ذلك عشرات المرات أمامي. وسأعيد لك أنك لا تجيد اللغة الإنكليزية ولا تتقن العمل على الكمبيوتر، من فضلك نحن مشغولون، ويمكنك الانصراف.

أدار الموظف ظهره وقطب حاجبيه من إلحاح العجوز على العمل، والأمر الذي ساءه أكثر لغة التعالي التي يتعامل بها. لذلك ما أن فتح العجوز الباب الزجاجي حتى تنفس الموظف الصعداء.

خرج العجوز كما سماه الموظف الأنيق، والرغبة تجتاحه لتدفق مياه مالحة من عينيه نحو العالم الخارجي الذي اعتقد يوماً ما أنه أكثر ما ينقصه ليشعر بالوجود، تماسه معه وتداخلٍ جزئياته في رئتيه. يود الآن لو بقي في مكانه وعاد عشرين عاماً إلى الوراء ليمتد الزمن ثانية ويعيش عمره بين جدرانه.. وإلى الأبد.

عـــندما خـــرج مـــن السجن قبل أشهر، لم يخطر بباله القيامة الصـــغيرة، ماذا صنعت في بلاده وكم من الشياطين والملائكة تزاوجوا وأنجـــب الرب في غفلة عن البشر مخلوقات تحمل على ظهرها جوانح، ومـــن مؤخـــرها تـــتدلى الأذناب وتظل مبتسمة في الشوارع. تغني، تصـــفق، وتطلق آلاف الشعارات التي لم يعتد عليها. عد ذلك كرنفالاً ســـينتهي عاجلاً أم آجلاً، واحتفظ بأفكاره التي سجنته عشرين عاماً داخـــل قلبه وأوصد عليها بصمته خوفاً من المخلوقات الجديدة. كان رجـــل زمـــن فات، دون أن يعلم بمروره، وبات من الضروري تسليم نفســـه لأول إسفلت يحوله إلى طريق لعبور الناس. سلم روحه لطريق بيـــته، وعـــندما وصله كانت سماؤه الصغيرة بين ضلوعه على وشك الاختفاء:

ـــ مساء الخير.

ـــ أهلاً.. تأخرت. ردت زوجته بلهفة.

لم يجب. جلس بصمت قرب زوجته وابنه وهما يراقبان التلفزيون.

حـــدق في الجهاز الأسود على الطاولة، وعاد إلى لحظة استغرابه الأولى عـــندما غـــير ابنه صورة التلفزيون عشرات المرات وهو جالس عـــلى الأريكة. استفسر منه عن المحطات الكثيرة التي تنقله من بلد إلى آخـــر وهـــو لا يـــتحرك من مكانه. كان كطفل صغير تغريه الأشياء بـــالدخول إليهـــا فيشعر أنه نقطة سابحة في فراغ صغير، شرق البحر المتوسط. وأن كل ما يراه على الشاشة الصغيرة امتلاء ثقيل يحيط بهذا الفـــراغ. ابنه كان سعيداً وهو جالس أمام أبيه ساعات طوال، شارحاً

له الكثير من الأشياء التي لم يعتد عليها بعد، في عالم جديد لم يستطع أبداً الدخول فيه.

طلبت زوجته منه أن يكف البحث عن عمل، لأن الحياة تغيرت، ومن الصعب جداً أن يجد له مكاناً فيها. ولرغبتها في سعادته، اقترحت عليه التفرغ للقراءة والكتابة كما حلم دوماً. همست في أذنه:

ـــ بإمكاننا أن نتدبر أمورنا كما كنا قبل خروجك من السجن.

لم يجبها، وازداد توغلاً في عجزه. صرخ في روحه :

ـــ ألا يكفي أني تركتها للعذاب كل السنين الماضية ؟ هل قدر علي أن أخرج من السجن لأقف أتفرج عليها ؟ وهي تعمل ليل نهار من أجلي، يا للمصيبة! كان حلمي الأكبر بعد الخروج من السجن هو أن أدعها ترتاح بقية عمرها، وإذا بي أقف عاجزاً إزاء ما يحدث وكأني غريب عن العالم. كأني أتيت من كوكب آخر، يا إلهي ما الذي حدث للبشر ؟ أصدقائي يسخرون عندما أحاول تذكيرهم بالعالم الحقيقي الذي عشنا من أجله. يتندرون علي بأني أعاني من أحلامٍ وأوهام فارغة. كان مجرد ذكر كلمة فلسطين فيما مضى كفيلاً بتحريك الأرواح، ما الذي حدث اليوم ؟ إنهم ينسون نصف قرن من الدماء؟ جملة (وحدة عربية) كانت تغرق الصدور في عصور قادمة من الحضارة المنسية. اليوم تجلب هذه الكلمة السخرية والاتهامات القاسية، اللاواقعية، الطوباوية، وصفات أخرى من الأحكام الجاهزة في عقولهم. كل شيء يمشي بهدوء ومنطقية وكأن من الصعب أن تقول أن السماء حمراء، لماذا ؟ لأن من المنطقي أن السماء زرقاء ومن الطبيعي أن نطلق

حكماً عليها بهذا اللون. كذلك ما يحدث، منطقي ومخطط له ومن الصعب الخروج منه، لكنه يبدو أسلم الحلول على أرض الواقع. وأي طرح سواه سيغرقنا في الدمار، يا للمهزلة فيما سنصير إليه، هل أنا غبي؟ أم عاجز؟ حتى أقف أمام نفسي هذا الموقف. في السجن كنت أتابع جميع الأخبار، وأدرك أن زمناً أسود غطى أحلامنا التي دفعنا حياتنا ثمناً لها. لماذا أغضب الآن ؟ ربما لم أتوقع الأمور بهذا السوء.

دائماً كان يدخل في محاكمات عقلية بينه وبين نفسه، فيخرج منها أكثر يأساً حتى أنه امتنع عن زيارة الكثير من أصدقائه. صار يجوب الشوارع ليل نهار في بحث دائم عن فرصة عمل لم يجدها.

في إحدى المساءات، وبينما جلس على الأريكة تاركاً لتنهدات تعبه حرية الخروج من صدره، علق بعبارة سخرية حول الصورة التي كان ابنه يحاول أن يلصقها على جدار غرفته. ذكره ذلك بالصور التي كان رفاقه يلصقونها على غرفته :

ــ من هذا المخنث المولع به ؟.. أيام زمان كنا نعلق على الحيطان صور غيفارا ونسمع أغاني فيروز وهي تحدق فينا من خلال صورها المنتشرة على الحيطان.

انتفض ابنه وهو يراه على هذه الحال وصرخ دون مقدمات :

ــ زمن غيفارا انتهى.

علق ابنه، ونزل عن كرسيه، واتجه إلى والده حابساً في جسده انفجاراً سرعان ما تراكم وخرج من حنجرته :

ـ هـل تريد قتل نفسك يا أبي ؟ لماذا لا تجلس في البيت وتهتم بنفسـك أكثر، نحن على أحسن حال، عشنا دائماً على هذا الوضع، ولم يـتغير أي شيء وخروجك لن يغير في الأمر شيئاً. لماذا لا ترتاح قـليلاً ؟ هـل تعـتقد أنك ستغير وجه التاريخ عندما تعمل ؟ وأين سـتعمل؟ مؤهلات العمل الذي تطلبه تغيرت، وإن وجدت عملاً فلن تجده إلا كعامل أو مستخدم، وجسدك المريض من رطوبة السجن لن يتحمل. أرجوك يا أبي أفق من حلمك، العالم تغير، لم يعد ذلك العالم المشـبع بالكفاح والنضال من أجل الأفكار النبيلة. لم يعد هناك قطبان متصارعان من أجل تحقيق العدالة الإنسانية، العالم يحكمه قطب واحد وتسيره الدول القوية كما تريد، ونحن عبارة عن أدوات لتنفيذ مصالح هذه الدول. أنت تدرك ذلك جيداً ولكنك تحاول الكذب على نفسك حتى لا تشعر أن حياتك ضاعت من أجل حلم لا طائل له، أرجوك يا أبي من أجلنا أنا وأمي. لا تبحث ثانية عن عمل وتفرغ لنفسك قليلاً. اهـتم بصحتك، دعنا نستمتع بوجودك بيننا، إني بحاجة إليك، يكفي أني كـبرت ولم أعرف ما الذي تعنيه كلمة أب. الآن دعني أشعر بها، مـا تـزال تـلومني من أجل صورة لغيفارا.. يا إلهي.. ألم تستفق من أوهامك بعد ؟

دهش من انفجار ابنه في وجهه، ولم يجب.

انسـل من غرفة الجلوس إلى غرفة النوم، والوجوه التي رافقته في نهـاره الطويـل مـا تزال تطن في ذاكرته. تكشيرة أصحاب المحلات والشـركات، الطـلاء الأحمـر الصارخ على خدود وشفاه الفتيات

العاملات في الشركات الخاصة الجديدة، والعطور المنبعثة من المكاتب الأنيقـــة. كل ذلك حفزه للصمت وأكثر ما أثقله روحه الغريبة بينهم كنبي مهاجر على سفينة حزن.

خلع ثيابه واندس في فراشه.

دخـــلت زوجـــته إلى غرفـــته بعد أن وبخت ابنها الذي غرق في نشيجه حال دخول أبيه غرفته.

وضعت يدها على رأسه. أغمض عينيه. بلع ريقه، وبتنهيدة أثقلته ربع قرن من الزمن، قال :

— إني أموت.

آخر الدهليز

دقيقة أخرى ويفتح الباب وينتهي انتظارها المضني.

رجفــة تسري في العروق وتفتح في الروح اتساعاً لفضاءات لا متـناهية. إنــه يقــترب، وقع خطواته في أضلاعها رقص هادئ على موســيقى حالمــة. صرير المفتاح، طقطقة المعدن في وجه الصباح تعم أرجــاء الدهــليز الطويــل المــؤدي إلى مهجع السجينات.، بالنسبة للأخــريات لا يعــدو الأمر كونه موعد التفقد الصباحي، لكن الأمر يختــلف لامــرأة تقبع في ذكرياتها متوجة بالحنين، متوحدة مع سرها الدفــين مع خوف قديم أدمنت إخفاءه منذ الطفولة، وتجيد الآن إعادة صــياغته بمهــارة الأنثى المعتادة على ترتيب الأشياء بما يتوافق وعالمها الخــاص، خوفاً من العالم الخارجي. لحسن حظها يقع المهجع في آخر الدهــليز، تستمتع بوقع خطواته، جسدها يرتجف تحت الغطاء وتبتسم في قلــبها. يســترق النظر إليها ويتكور الجسد تحت الغطاء، سيتوقف طويلاً عند انحناء فخذيها وتبعثر شعرها على المخدة، ثم يمضي وحسرة تعتصره.

في إحدى المرات شمرت عن ساقيها،وتركت لساقها اليمنى حرية الحـــركة خارج السرير على الرغم من برد الحيطان، إلا أن لذة انتظاره واحتراقها، لحظة أدركت أنه وقف أمام المهجع أكثر مما يجب، أنساها البرد الضارب في عظامها.

كـــانت الأمور تمضي دون سؤال. لم تحاول فهم سبب اهتمامها بالســجان الشاب الذي عين مؤخراً. جسده الأسمر.. كتفاه العريضان أم الشرر المتطاير من خطواته على بلاط الممر؟ ولم يعنها الأمر أكثر من انــه رجل وحيد بين نساء سجينات، ثم تلك الرغبة الجامحة في الأنثى لكـــائن مولود فيها ومنها. أدركت عند غيابه بضعة أيام ذلك الفراغ الساكن في أعماقها، وتسربت إلى أيامها كآبة خفية لم تلحظها رفيقاتها في المهجع. كانت لا تترك لرأسها مجالاً لمفارقة الوسادة كلما تأكدت مـــن عدم مجيئه صباحاً. تغرق في الظلام حبيسة عوالم غريبة وشوارع بأضــــواء وصدر عريض ذي شعر كثيف لرجل داكن السمرة. وتفيق عـــلى ارتعاشات محمومة وسرية لنشوة سريعاً ما تنطفيء تحت الغطاء الـــرقيق. لم تتوقف لتسأل إحساسها عما يجري لأنها أحبت أن تحس بـــرجل يثـــبت بقاءها على قيد الحياة بعد أن فقدت ارتباطها بالعالم الخـــارجي. يئست من حلمها منذ الولادة وحتى اللحظة التي صرخت فيهـــا بوجه المحقق وهو يضربها لأول مرة، تداعت أول أعمدة مدينتها الأفلاطونيـــة الــــتي رسمتها للعالم، وعندما دخلت في عوالم أكثر قذارة وعـــبودية بهتت روحها وصارت تروي لصديقاتها قصصاً عن عبث ما يحـــدث وأن النضـــال من أجل تغيير العالم لا يحتاج لأناس حالمين بل

لـرجال حـرب ودمـار. وبعد زمن انكفأت نحو حزنها، صار من الطـبيعي أن تـراها صديقاتها لمدة ساعات جالسة مع وسادتها تاركة لعيـنيها حـرية التحـليق في الجدران. حالة بقائها مستلقية وعيناها مفتوحـتان للسقف لم تكن بالجديدة عليهن رغم التغيرات الغريبة التي طـرأت وكـانت مدعـاة التساؤل والاستغراب. في الصباح تصبح حركـتها أقرب إلى الجنون، تنط من زاوية إلى أخرى وتغرق في نوبة حديث طويل دون رابط أو مبرر. تمشط شعرها كالأطفال بينما لسانها يـتحرك دون إصدار صوت مع حركة رجليها اللتين تقربهما وتبعدهما بحـركة منتظمة وسريعة، ثم فجأة تهبط من علوها وتستقر في واد من السبات حتى صباح اليوم التالي لتعاود نفس الحركات.

اليـوم بالـتحديد قررت القيام بحركة تلفت نظر السجان الأسمر إليهـا. اقتربت خطواته من المهجع، نط دمها وعرفته، خطواته مختلفة عن الآخرين، فهو يترك لجسده متعة الهبوط الكامل على الأرض.

همست لنفسها (لا بد انه فلاح)، وقع أقدامه ينبىء بذلك، سمرته، عـروقه الزرقاء المنتشرة على سطح يده.. (سأقوم بحركة عندما تخرج السجينات، سأنتظر إلى الأخير وأحك جسمي بصدره.)

عيناها مشعتان تحاولان استقراء ملامحه وهو ينظر إليها بعد خروج النساء جميعاً. لم يفصلها عنه سوى ثوان، أزاحت خطواتها باتجاه اليمين وصـارت وجهـاً لوجه معه. بدا نعساً وثقيلاً على الأرض، تلألأ في عيـنيها، اقتربت وصدرها يسبقها، رمت عينيها في الأرض وانهمرت

عـــلى جسده. تراجع إلى الوراء وأبعدها بحركة قوية منتزعاً سلاحه ومصوباً مسدسه المصحوب بالصراخ :

ــ إياك والهرب ...

زوجة ثالثة

لماذا بعث في طلبه ؟

السؤال يحرقه ويجعله يتوه في دوامة من الخوف والرهبة. هل أدرك بغريزته الكره الذي يكنه له، أو استطاع النفاذ إلى أعماقه لأنه صاحب علم وبصيرة ويستطيع اكتشاف دواخل البشر بنظرة واحدة ؟ يقول ذلك دائماً، ويصر عليه في خُطبه أيام الجمُع، لكن خالداً لم يشعر نحوه إلا بالارتياب. لم ينس أبداً الحادثة التي جعلته يكره الذهاب إلى الجامع وهو يناقش الشيخ في إحدى الجلسات التي كان يعقدها هناك. احمرت أذنا الشيخ وعلا صوته واتهمه بالكفر لكنه لم يصمت. فبعد أن أنهى الشيخ خطبته المعتادة دعا الناس إلى محاربة أعداء الإسلام وتفوه بأشياء مخيفة أفزعته، ما إن تخطر بباله حتى يستغفر ربه ويفتح كتاب الله ليشحن روحه بسلام داخلي. لذلك قرر الامتناع عن الذهاب إلى الجامع، وعندما حاول أن يفهم الناس من حوله أن ما يقوله الشيخ هو الكفر بعينه انفضوا عنه وقاطعوه.

لماذا يبعث في طلبه الآن ؟

لا بــد انه يبيت أمراً ما، والمشكلة أن الدعوة جاءت من زوجة الشيخ وعليه الذهاب مع زوجته إلى بيت ذلك الرجل المخيف :

(لعنة الله عليه، ما الذي يريده مني).

لم يستطع أن ينسى منظر الشيخ وهو يبارك المذابح التي تنتشر في طــول البلاد وعرضها ويعتبر ما يحدث دفاعاً عن الحق والله. صرخ في وجهه:

ـــ لا أعــتقد أن الأمور عكس ما تقوله، ديننا دين حب وتسامح وليس دين قتل وذبح.

رد الشيخ بعصبية :

ـــ أعــوذ بــالله من الشيطان الرجيم، وهل نترك كلام الله ونتبع كلام أمثالك من الجبناء. الدفاع عن الإسلام واجب، وجهاد في سبيل الله، هــل نســيت رجال الإسلام الأوائل الذين حملوا السيف وأراقوا الدماء من أجل إعلاء كلمة الحق ؟

صــمت خالد ولم يجبه. كان يعرف أي مأزق سيضعه الشيخ فيه أمام الناس، لذلك قرر بتر الحديث وتكلم بهدوء :

ـــ الوضــع هــنا مختلف، المسلمون يقتلون بعضهم البعض والله وحده يعلم من يقف وراء كل ذلك، إن هو إلا شيطان رجيم.

ـ الله يـاخذك، أخـرج من مجلسنا نحن لا نريد رجالاً بيننا لا تـتحمل رؤية الدم من أجل قضية الإسلام، لا حول ولا قوة إلا بالله، كنا ننتظر من أمثالك الدعم، يا للأسف أنت تهرب كالأرنب.

خـرج يومهـا من المجلس و لم يعد إليه ثانية، كما لم يلمح إلى ما يعرفه عن الشيخ وأتباعه. صمت بحزن وخوف. في أحد الأيام، وأثناء مروره أمام مقهى الحي، ضحك أحدهم وصرخ فيه بسخرية :

ـ يا أخي ليش الحجاب للنسوان، لبس مرتك شورت.

عاد إلى بيته مذعوراً، وفي صباح اليوم التالي طلب من زوجته أن تضع خماراً فوق حجابها لم تمانعه فهي معتادة على وضع الحجاب منذ الطفولـة، ووضع الخمار لن يغير في الأمر شيئاً، بالإضافة إلى أنها تعد طاعة الزوج واجبا عليها.

في بيت الشيخ تجمعت النسوة في غرفة واسعة، مفروشة بالسجاد، ومـزدانة بلوحات كبيرة لآيات قرآنية مطرزة بالخرز وخيوط الحرير. كـن سبع نساء يقابلهن في الغرفة المقابلة سبعة رجال، وفي وسط كل غـرفة وضـعت طاولة من أشهى أنواع الفواكه والحلويات. بدا الجو احـتفالياً وعلت همهمة النساء وهن يشاهدن شيخ الحارة الطيب ذي المكانـة المهمـة يقفز متجاوزاً الغرفة بمرح واضح، الأمر الذي جعل النفوس تهدأ حتى أن أحد الرجال همس :

ـ والله العظـيم إنه لشيخ طيب، ولو روى لي أحدهم البساطة والطيبة التي يتمتع بها لما صدقته، الله يحفظه لنا.

عـــندما انتهوا من الطعام وقف الشيخ وخاطب الرجال بصوت قوي أراد أن تسمعه النسوة :

ــ اسمعـــوا يا عباد الله، نحن المؤمنون أخوة ولا عداء بين الأخوة ومـــا حـــدث بيني وبين خالد المصطفى أمر غير مستحب ومكروه في ديننا. وأمامكم أطلب منه إن رأى في كلامي قسوة أن يعيد النظر فيما فهمه وأدعوه أخاً لنا، بإذن الله تعالى.

الدهشـــة الـــتي عمت الجميع سرعان ما تحولت إلى فرحة، وهم يرون شيخهم وكبيرهم يتنازل بنفسه إلى خالد المصطفى :

ــ يالك من مؤمن كبير.

ــ الله يخليك لحفظ وحدة المسلمين.

وحـــده خالد، أصابته الدهشة، ورغم أنه قام من مكانه وقبل يد الشـــيخ وباركه الآخر علي مرأى الملأ، إلا أنه لم يجد تفسيراً لما يحدث واكـــتفى بالصمت، مراقباً ما سيجري بعد ذلك. عندما عاد إلى بيته أبـــدت زوجته إعجابها بأخلاق الشيخ وعنفت زوجها على تصلبه في مواقفه تجاه الشيخ.

صار خالد يلتقي الشيخ دائماً في الجامع وفي بيت كل منهما، بدا كـــأن سلاماً عميقاً يجتاح قلوب الناس، لم يصحوا منه إلا على صراخ زوجـــة خـــالد ذات مساء، عندما وجدها أهل الحي مقيدة ومرمية في إحـــدى زوايا البيت، بينما كان خالد وأطفاله الثلاثة غارقين في بركة

دم ساخن. تسرب إلى أعماقهم خوف مزمن طالما حاولوا مداراته وقتله في أرواحهم المؤمنة. أما لماذا ترك المسلحون الزوجة فهذا ما لم يحاولوا الخوض فيه، لأن عدوى الموت المنتشرة في المدن المجاورة طالتهم، وهذا يعني بداية ليال من القتل والخوف وكوابيس دموية لن ينجو منها حتى الأطفال. لم يترك الشيخ الأمر على حاله عندما سمع بالخبر. جاء إلى البيت والدموع تملأ عينيه وقرأ آيات من الذكر الحكيم على أرواح المغدورين، وأفاض بالحديث عن خالد وحسناته، وعن روحه المسالمة. وطالب بمعاقبة القتلة ودعا الله أن يغفر للخطاة، وتمنى لخالد وأطفاله الأبرياء دخول الجنة. ثم طلب من الحشد التفرق واستدعاء الشرطة، أما زوجة خالد فقد أوصى الشيخ زوجته الاهتمام بها ريثما تهدأ نفسها.

بعد عدة اشهر أعلن الشيخ أنه سيتزوج من أرملة خالد حفاظاً على شرفها وصوناً لها، فأبدى الجميع إكبارهم لشيخهم الجليل. فهم يعرفون مدى تعلقه بزوجته الثانية وحبه لها. لم تحرك أرملة خالد ساكناً حين علمت بأنها ستصبح زوجة الشيخ. كانت في حالة ذهول وبهتان، لم تستطع الخروج منهما يوماً، وإن خرجت لحظات فسرعان ما تغرق في بركة حمراء لم تفارق خيالها.

فقط عندما انتظرت الشيخ في غرفة ثالثة تمتد إلى جانب غرفتين أخريين في بيته ونظر في عينيها بوله، لحظتها تذكرت القفزات المرحة أمام الغرفة. وتذكرت أيضاً تلك الالتماعة الحادة في عيني الشيخ التي أرعبتها ذلك اليوم، واستفرت في أعماق جسدها كسيخ من نار.

قشرة دم

بخـــار أحمـــر يلون جذوع الأشجار بسحر مخيف قادم من زمن سحيق، رائحة احتراق لحم بشري ونكهة طازجة للخشب المغسول بالمطر والرصاص. تقدم نحو آخر الأشجار وحك جلده، ولوهلة امتلأ بدغدغـــة الحياة في عروقه عندما اسند رأسه إلى جسم صلب فتركه ينفـــلت إلى آخر ما يستطيع، وهو يحاول تثبيت دماغه الرجراج في رأســـه. هـــل من أحد سوف يقتله ؟ تساءل ولمعت فكرة الموت في ذهـــنه، وملأتـــه بالامـــتعاض. انتفض وتلفت نحو اليمين ثم اليسار، وكانت أصواتٍ الأوراق تخرمش أذنيه :

(ماتوا جميعاً ولم يبق أحد منهم)

لم يصـــدق مـــا يفعل، عندما كان يجلس على الأريكة في منزله وينـــتقل من محطة تلفزيونية إلى أخرى هرباً من مناظر الرعب والدمار كان يصاب بنوبات من الغثيان والإحساس بالخوف مما يراه. هو الآن ضـــمن المشـــهد الحقيقي ويفعل ما لا يفعله الكثير من الجنود، لو تراه زوجـــته لن تصدق عينيها، لطالما اتهمته بالخوف وبعدم التماسك أمام

مناظر الحرب. تخيلها تشاهده اللحظة على إحدى المحطات فأحس بعريه.

صوت ما :

(إنه العدو سأموت الآن)

الجملة الوحيدة التي رافقته من بداية الحرب وحتى اليوم. في كل مرة يلفظها ويواجه الموت يقتل ما يصادفه أمامه من بشر ليبعد شبحها عنه. بعد ذلك اعتاد القتل والتحم بسلاحه الأسود كرئتيه. إصبعه على الزناد، وبحركة خاطفة استدار نحو الخلف وبدأ بإطلاق النار، ولم يتوقف إلا بعد لحظات عندما أفاق من كابوسه أمام كائن صغير شبيه الأرنب. ضحك من خوفه، وأعجب بحرصه على نفسه.

لابد من القيام بحركة جديدة، ما هي ... لا يدري.

عليه الإغفاء للحظات ليتسنى له الخروج من الغابة. جمع حوله كومة من الأوراق الجافة والأغصان اليابسة ثم حشر نفسه بين جذعين ضخمين وغمر نفسه بالأوراق والأغصان. تكور واستعد للدخول في النوم، أغمض عينيه في محاولة لتهدئة الروح والجسد، لكنه ما أن أطبق جفونه حتى فوجيء بصعوبة إغماض عينه اليسرى، وكأن جفنه ملتصق بالحاجب. حاول أن يحك عينيه، اصطدم إصبعه بشيء يابس يتوضع فوق عينه حاول انتزاعه بهدوء لكنه لم يفلح. شد عليه، آلمته عينه، ثم توضعت في كفه قشرة حمراء يابسة. عندما نظر إليها تذكر عيني العجوز التي رجته ألا يقتلها. هي جزء من دمها وربما من دماغها

المتناثر الذي فجره برشاشه عندما اقتحم الجنود القرية. كانت الأوامر قد وصلتهم بإبادتها، دخلوا البيوت، بيتاً بيتاً و لم يجدوا أي رجل عسكري بين القرويين. كانوا فلاحين يختبئون في بيوتهم خوفاً من غارات الطيران التي تقصفهم بين يوم وآخر. لم يخطر ببالهم أن طيورا ستخرج من الأرض ليلاً وتحصدهم. فوجئوا بنيران تنشر دماءهم وأعضاءهم الممزقة. تتركهم مجالاً حيوياً للديدان، البيت الوحيد الذي لم يدخله الجنود كان غرفة صغيرة تبعد عن القرية مسافة نصف كيلو متر، وعلى الرغم من أنه بدا مهجوراً إلا أن رغبة خفية بالقضاء على كل كائن يشعر بوجوده دفعته للركض تجاهه. دفع الباب برجله، الغرفة مظلمة وموحشة. كان هناك عينان مذعورتان لعجوز مشلولة هما من بثتا الرعب فيه. أدار ظهره وتراجع نحو الوراء. عينان مذعورتان تتوسلان البقاء في ليل قرية ينوء بالدم والصراخ. الأمر لم يستغرق الثانية، رشاشه مصوب نحو تلكما العينين، أطلق عدة طلقات وهرب بسرعة. تنهد بارتياح ولحق بأصدقائه إلى الغابة، ثم فجأة صار وحيداً. ربما أخطأ الطريق ولا رصاص أمامه يدله على اتجاه أصدقائه، همس : لماذا قتلتها ؟

نظر إلى قطعة الدم اليابسة في يده واستغرب كيف يسأل نفسه الآن هذا السؤال. كانت عجوزاً ستموت وعاجلاً أم آجلاً مشلولة الأطراف حوّلها في لحظة إلى كتلة لحم ممزق، بالكاد سأل نفسه حتى سمع صوتاً من الجهة اليمنى. انتفض وأطلق النار، كانت الأوراق من حوله تتحرك وجذوع الأغصان تستجيب لعاصفة قادمة. بدأ جسده

الارتعـــاش، تفـــتحت مسام جلده، نز منها ماء مالح حرق جروحه المفروشة على جسمه، صرخ بصوت عال :

ـــ الأعداء، الأعداء.

حمـــل رشاشـــه ثم بـــدأ الـــدوران حول نفسه. وبارتجاج أفقده الإحساس بأي شيء راح يطلق النار.

أوراق بيضاء

عندما انتشر الخبر لم تصدق ما سمعت، أخيراً سيخرج إلى النور، وينشر ظله في محيط وجودها. ستغرقه بحنينها المخبأ في جرارها.

ولكن كيف خرج ؟

لقد أخبرها رجل بثياب عسكرية أن زوجها أفرج عنه وهو في المشفى لإجراءات بسيطة. أدارت سماعة الهاتف واتصلت بولديها والأقارب واتجهت مسرعة نحو المشفى. على باب غرفته ورغم القرار بإطلاق سراحه كان يقف رجل عسكري. دخلت الغرفة، الأنابيب تلتف حول السرير كأيد شيطانية وأجهزة ضخمة بعيون كبيرة. لم يظهر منه سوى ذلك الارتفاع الطفيف للغطاء الأبيض، وعلى المخدة شعر أبيض تعبث به الأنابيب، ربما أخطأت الغرفة أو أخطأوا في تحديد الشخص المفرج عنه. ليس هو، اقتربت أكثر ونظرت إلى وجهه، قطعة بلاستيكية تغطي أنفه. ليس هو، بالتأكيد ليس هو. منذ شهر رأته ولم يكن على هذا الحال، كان متعباً فقط. صرخت في الرجل العسكري مستوضحة عن اسم الرجل، فوجيء العسكري بسؤالها وأكد لها أنه

زوجها. اندفعت نحو السرير ودبابيس حادة تغزو جسدها أينما تحركت. تفرست في وجهه :

(لو يفتح عينيه)

زوجها طويل وهذا الرجل قصير، وجهه عريض وهذا الرجل لا وجه له. جسده ضامر حد الذوبان، أمسكت يده امتزج عرقها مع يده الزرقاء، شدت على اليد، انتبهت فجأة إلى الإبر المغروسة فيها فتراجعت إلى الوراء.

أي نهر من الدموع فاض في أروقة المشفى وأغرق ليل المدينة بألوان شوقها إلى حضنه. لن يدرك كائن بشري اتساع صرخاتها الداخلية وحنينها العتيق إلى رائحته. هل من المعقول أن يكون الإنسان موجوداً وغير موجود بنفس الوقت ؟ خطر ببالها رنين ضحكاته وراء القضبان وتذكيره إياهم بأيام حبهما الأول. عندما سألت الأطباء عن حاله لم يجبها أحد ولم يحاول أي منهم التدخل. كانت الممرضة تدخل وتخرج بصمت القبور، وعندما جاء الأولاد والأقارب ترددت همسات عن إصابته بمرض السرطان وإخفاء الأمر عنها حتى وقت قريب. لم تستطع الوقوف على رجليها. انهارت ودخلت في غيبوبة لم تفق منها إلا بعد أيام. حين سألت عنه لم يجبها أحد، كان صمتاً أكبر مما حدث، الوحيدة التي اقتربت وهمست في أذنها.. حفيدتها الصغيرة :

ـ تاتا أنت ما عرفتي أنو جدو مات مبارح.

ـــ لم تصــــدق ما سمعت، هل انتظرت عمرها من أجل الموت؟

... هل كانت على موعد مع الموت ؟

ذهـــول أخرسٍ وفضاء بحجم قبضة الكف ... لا، إنه ما يزال في السجن، من الأفضل أن تنتهي القصة على هذا النحو. صرخت. ومن الأوراق انســـلت دمعة ... دمعة وحين اكتمل رسمها، جثمت فوق مكتبي وقالت :

ـــ نهاية غير منطقية.

ـــ لكنه مات حقيقة وليس في القصة.

ـــ أنت قاصة فاشلة وواهمة وتخترعين أشياء لا معنى لها.

نزلت عن المكتب وأحضرت أوراقاً وقلماً وبلهجة آمرة قالت :

ـــ هيا اكتبي نهاية القصة.

ـــ لكني أنا كاتبة القصة.

ـــ وأنا بطلتها ويحق لي التدخل في النهايات ... هيا اكتبي :

ـــ بعد أيامْ شفي من مرضه وعاد إلى سجنه.

التفتت إلي وهمست :

ـــ مـــن قـــال لك أني أريده أن يخرج، فليبق بين قضبانه، حسناً لأكمل :

ـــ وبعـــد عودتـــه إلى سجنه صارت زوجته تزوره ليتحدثا عن ذكرياتهما القديمة في الحب

انحنت على الأوراق ثانية وهمست في أذني :

ــ وإذا لم تنته القصة على هذا النحو، سأنسحب وتعود أوراقك بيضاء.

غريبتان

الهـــدوء الذي عم ساحة القرية أيام متوالية لم يكن مألوفاً. قطيع الـــثيران والأبقـــار اختفى واختفت معه العجوزان. حركة ملحوظة داخـــل الزريبة، فالمكان يتوسط الساحة رغم محاولات سكانها الحثيثة لإخلائه وتنظيفه من الروث والأوساخ. ذهبت جهودهم سدى لأن العجوزيـــن أظهرتا شراسة قاتلة في الدفاع عن مكانهما. حين جلب أحدهم قراراً من المحافظة بهدم الزريبة، قيل أنهما دفعتا الكثير لإبطال مفعول القرار. وما يثير الاستغراب الآن اختفاؤهما المفاجىء.

كان خروج القطيع صباحاً وسط الأزقة، وعودته بعد ساعات، ثم ذهـــاب العجوزيـــن بوعـــائين كبيرين من الحليب إلى المدينة القريبة، وعودتهمـــا ظهراً بتكشيرة مخيفة، طقساً يومياً مألوفاً، لدرجة أن أهالي القـــرية إذا أرادوا تحديـــد موعد دقيق مهم كانوا يقولون قبل خروج الغريبتين صباحاً أو : عند عودة الغريبتين ظهراً. لذلك، تساءل الجميع بخـــوف عمـــا يجري. لخمسين سنة مضت لم يحدث أي طارئ أوقف العجوزين عن عملهما رغم المصائب التي كانت تلم بالقرية بين وقت وآخر. بعضهم سخر من غيابهما، تندروا بأنهما تقضيان أوقاتاً ممتعة مع

ثيرانهما. آخرون قالوا أنهما تقومان بحفر قبريهما داخل الزريبة. وكثير من الأقاويل صار يطلقها شباب القرية، ولم يخطر ببال أحد سبب اختفائهما الحقيقي.

في اليوم التالي صار هيجان الثيران لا يطاق مما جعل سكان البيوت المجاورة يقررون خلع باب الزريبة.

اجتمع الرجال وشكل الصغار والنسوة نصف دائرة حول المكان. فتح رجل باب الزريبة وتراجع الجميع، ثم تفرقوا برعب. اندفعت الثيران بجنون، مصطحبة معها رائحة كريهة ومنفرة، جعلت بعض النسوة يتقيأن ويعدن إلى بيوتهن. بدا المشهد مثيراً. خرج الثور الأبيض وقد تعلقت برجله جثة العجوز. كان المشهد ساخراً ومخيفاً حقاً، لكن الثياب المعروفة للجميع والتي حملت كتلة لحم ممزق أغرقتهم بالصمت. كان لهما طريق خاصة باللباس تستر كل جسديهما فلا يبدو سوى محيط الوجه المائل إلى الأزرق. حتى في الصيف كانتا ترتديان الأكمام الطويلة والأثواب الفضفاضة وتلفان شعريهما بخرق ملونة، ونادراً ما شوهدتا بغير ذلك، وكأنهما ولدتا على هذه الشاكلة. عجوزان قذرتان بثياب غريبة. ويروى أن رجلاً طاعناً في السن ذكر أن امرأة جاءت القرية ذات شتاء تحمل جوعها وبطنها المنفوخ بهاتين البنتين. كانت تلك المرأة ترتدي ثياباً شبيهة بثياب العجوزين.

لم تخرج حياة العجوزين عن نطاق تربية القطيع وتحية الصباح التي كانتا تلقيانها على الجميع. ازدادت غربتهما سنة بعد أخرى،وإذا خطر

لأحـــد الاقتراب منهما، كن يغرقنه بالسباب والشتائم، فابتعد الجميع عـــنهما، لأن الشـــيء الوحيـــد الـــذي سينالونه هو الرائحة الكريهة واللعنات.

لم يـــتوقف الـــثور الهائج، ولم يجرؤ أحد على الاقتراب منه. بقي هائماً في الأراضي يجر الجسد الممزق حتى المساء. استطاع أحد الرجال أن ينتزع الجثة العالقة في قدمه، بعد أن كم أنفه وجسده، وضعها على كيس كبير من النايلون وحملها الرجال إلى وسط الساحة. أما العجوز الأخـــرى فكـــانت متكورة حول نفسها مغطية وجهها بيديها، يابسة مـــنفوخة. لم يسأل أحد كيف حدث ذلك، كانت الفرحة تشع من عيونهـــم بعـــد خلاصـــهم من قذارة العجوزين. اطمأن الناس للنظافة القادمة، ولم يدركوا أي لعنة ستحل بهم بعد معرفتهم السر.

ركضـــت النســـوة وخرجن محمومات من غرفة الموتى الخاصة. إحداهـــن كانت تبكي والأخرى مذهولة، أما الثالثة التي نطقت بعدة كـــلمات فقـــد غـــرقت بســـبات لأيام عدة. أمر شيخ القرية بدفن العجوزيـــن خارج مقبرة القرية، وأغلب الناس اعتبر أن ما حدث نذير شـــؤم سيصيب القرية لأعوام قادمة. والقليل لم يصدق ما تفوهت به المرأة ذلك اليوم :

" يا إلهي ارحمنا إن لهما جلداً قاسياً أسود ... وحول خصريهما يلتف ذيل أسود.. طويل.. يا.. رب.. العالمين "

ولم تكن تلك الحادثة سرى البداية.

لعبة الاحتمالات

(لا تترك النمر جريحاً، ابتعد عنه، أو اقتله.)

عندما سمعت تلك العبارة انتفضت، تطلعت حولي، وجدتني محاطاً بعشرات النمور الجريحة.

هــل كــانت تلك العبارة ما أنبت النمور في الأرض وملأ غرف البيت برائحة الفرائس ؟

لا أدري. وجدتني محاطاً بالخيارات الصعبة المتراقصة في دمي.

بداية قررت أن أبتعد عن النمور الجريحة، وأتحاشى جنونها. تركت بيتي وهربت إلى الطرقات. وصلت إلى منطقة نائية. وما كدت أدخل في النوم حتى استيقظت على أجزاء جسدي وهي تنــزلق قطعة قطعة في أفواه النمور. خفت وعدت مرعوباً إلى مكاني باحثاً عن خيار آخر. حضــرت أدوية لشفاء الجروح وإبراً مخدرة وضمادات، وبدأت بعلاج النمور التي صارت تنبع من كل الأمكنة والزوايا.

حــل المســاء، وكنت أضمد آخر الجروح. وحين هممت بملاقاة ســريري، مهــدوداً مــن التعب، انتزعت النمور ضماداتها، وبدأت افتراسي.

يا للهول ما الذي سأفعله ؟ لم يبق سوى الخيار الأخير : سأقتلها بأسلحتي.

بـــدأت إطلاق الرصاص عليها الواحد تلو الآخر، وثمة متعة خفية تغزو عروقي. كنت أراها تهوي. ستنتهي إلى العدم وأعود إلى سكينتي. تأكدت من موتها.

تـــلوثت بدمائها، أغلقت الباب على بركة الدماء ونزلت ساحة المديـــنة، طافياً فوق الشوارع بخفة. وصلت الساحة وكانت المفاجأة. فـــارت أزقة المدينة بالنمور الجريحة، وكنت فريستها الوحيدة. انقضت علي ... ثم ...

آه ...

هل ...

كنت أ..ر..ن..ب..ا

ديك جدتي

من المفترض أن يجن جنون جدتي الآن. كنت أعرف هذا، ولكن الأمر لم يكن يعنيني كثيراً، فدجاجاتي الرائعات ينمن بالقرب مني أنا وأنا مختبئة بين عيدان القصب الجارحة. تصرخ جدتي :

ــ ولــك قطيشة.. وينك.. الله يلعن أبو الساعة يللي ضليتي فيها عندي، هلق بيجي بيّك وبيقوّم الدنيا وبيقعدّها.

ولأن جــدتي تخــاف على ساقي النحيلتين والبيضاوين من ورق القصب الحاد، تراها تلطم وجهها وهي تصرخ كلما غبت عن عينيها. تركني والدي عندها لأقضي إجازتي الصيفية بعد توسل وبكاء مريرين مــني، وهي تعلم علم اليقين، أني المدللة عنده وأنه أينما اتجه لا يمل من الحديــث عــني وعن ذكائي وتفوقي وجمالي الأوروبي. وفي الإجازة الماضية عندما خدشت ربلة ساقي جن جنونه وصرخ في جدتي :

ــ بكــل ديــرتك ما في متل هالإجرين.. مو حرام هيك يصير فيهن.

وجدتي المسكينة لا تنفك تلعنني وتلعن الساعة التي أتيت فيها إلى العالم، وكانت تطلب من أبي أن يعود بي إلى المدينة لكني أتوسل إليها وأمرغ رأسي في حضنها باكية، فتعود عن قرارها.

لم يكن أحد يعرف سر تعلقي الشديد بضيعتنا وإصراري على البقاء هناك. في الحقيقة كان الديك هو السبب أجل، الديك ودجاجاته الخمس وخاصة الدجاجة الحمراء المفضلة لديه والتي طالما دعوتها بحبيبته. كنا نقضي معاً ساعات طوال بين عيدان القصب وبين بساتين الليمون ومساء لا يغمض لي جفن حتى أطمئن على وجودهن داخل (القن). وأكثر ما كان يغريني الالتصاق بذلك العالم تلك الحركات الغريبة بين الديك ودجاجته الحمراء. كانا يبدوان كعاشقين متيمين، فهو يبدي لها احتراماً غريباً. تسير أمامه دوماً ويمشي وراءها بخيلاء وكأنه فخور بوجودها، حتى عندما (يدكّها) حسب تعبيرات جدتي، يفعل ذلك بطريقة خاصة. بعد أن ينتهي لا يبتعد عنها بل يطوقها بجناحيه، فأتخيل للحظات أن هذا الديك أشبه بإنسان وإلا فما معنى تصرفه ذاك ؟ ولماذا يقبع قربها على هذا النحو ؟ وتحضرني صورة جدتي ماشية وراء جدي دوماً ولا تستطيع أن ترفع عينيها في وجهه.

لكن سعادتي مع الديك لم تستمر طويلاً. ففي إحدى الليالي اختفت الدجاجة الحمراء دون أن نعرف السبب. في اليوم التالي ظلٍ الديك يدور حول نفسه طوال النهار، وأعتقدنا أنه سيسقط صريعاً وتنتهي الحكاية على هذا النحو. إلا أن هذا لم يحدث. اختفى قبل الغروب بقليل. لم أستطع النوم وبقيت دموعي تحرقني حتى خيوط

الفجـــر الأولى، وكنت أنسل من البيت بين وقت وآخر حالمة برؤية الديك ودجاجته داخل القن، لكن ذلك لم يحدث أبداً. بقيت على هذا الحـــال حتى غفوت قليلاً على المصطبة، وأفقت مذعورة على صراخ أحد الصبيان الذي جاء يخبرنا أن الدجاجة الحمراء هربت إلى بيت أبو عـــلي وأن ديكـــنا الآن يتقاتل مع ديك أبو علي والقرية كلها مجتمعة هناك. كان ما يدور من عراك بينهما أشبه بالخيال.

لم يكد الصبي ينهي جملته حتى اندفعتُ وجدتي نحو بيت أبو علي. استغربت كيف عرف الديك مكان دجاجته وكيف استطاع قطع تلك المســـافة دون أن يضيع طريقه. وصلنا بعد حين ووجدنا المشهد غريباً. البشـــر يضـــحكون ويصفقون وهم يرون الدم يتدفق من عنق الديك الخصـــم. تجمدت دهشة، كيف يصفق هؤلاء لهذا المنظر المرعب؟ كانا عـــلى أعـــتاب المـــوت والناس يهللون. لم أكن أعرف أن تلك الحادثة ســـتكون بدايـــة غربتي عن عالم البشر الشهواني للقتل. لم يستمر القتال طويـــلاً لأن الشراسة التي أبداها ديكنا هائلة. خرَّ الديك الآخر صريعاً واتجـــه ديكـــنا بسرعة نحو الدجاجة الحمراء الغارقة بين جناحيها. فرد الديك جناحيه حولها وجعلها تمشي أمامه ثم اتجه نحو بيت جدتي.

لحقـــنا بـــه بصـــمت مهيب. كانت جدتي فخورة به. وأخذت تـــتحدث للنســـوة عن فحولة ديكها . وصلنا إلى البيت فاتجه الديك بدجاجـــته نحو القن. بعد أن صارت الدجاجة في الداخل، فرد الديك جناحيه، صاح ثم هوى نحو الأرض متخبطاً، وكان الدم حاراً ما يزال يلمع على عنقه.

صرخت جدتي :

ـــ وَيـــْلي.. الديك عم بيموت.. حدا من الرجال يدبحو

لم أكـــد أسمع كلماتها حتى انتفضت، وعندما ركض أحد الرجال ولمع حد السكين في الشمس اندفعت نحوه أصرخ وعاصفة من البكاء تســـبقني. أمســـكتني جـــدتي، رفستها وحاولت التملص، لم أستطع، نظـــرت إلى مكـــان الديك، كان غارقاً ببركة دم حمراء، لم أصدق ما حدث، هربت إلى داخل البيت وغرقت في نوبة حمى وبكاء استمرت لدقـــائق. أفقت على صوت جدتي وهي تحدث النسوة من حولها عن أطـــباع حفيدها الغريبة وتؤكد لهن أنها ستأخذني إلى إحدى المزارات القريـــبة من ضيعتنا. كانت تعتقد أني مصابة بلوثة ما ونكاية بالدجاجة الحمـــراء ســـتذبحها عن روحي ؟! أردت أن أعرف ما حل بالديك، خـــرجت، كـــانت جدتي مجتمعة مع بعض النسوة حول ماء تغلي في وعـــاء اســـود كـــبير على نار من حطب، ويبدو الديك إلى جانبها، منتوف الريش. عندما لمحتني جدتي نادتني، لم أستطع الاقتراب. تحركت من مكانها، وبعينين حزينتين، بسطت كفها المدماة أمامي. رأيت قطعة لحم بحجم حبة عنب كبيرة تميل إلى السواد وقد فلقت نصفين.

همست جدتي بحنو :

ـــ شفتي يا ستي، هي قلب الديك.. المسكين طق قلبو نصين.

حبيبتي

ولأن أيامي كانت تمضي بلا رائحة، لم أحاول سؤال نفسي لماذا أنا موجودة على هذه الأرض كباقي الكائنات الحية، ولم يخطر ببالي مطلقاً البطء الثقيل الذي مرت فيه أيامي. ربما السبب في ذلك الحركة السريعة والطاحنة لتفاصيل الحياة الصغيرة والانغماس فيها دون أن يسأل الواحد منا: لماذا أحيا؟ وما مبرر وجودي؟ وما نتيجة الركض وراء التفاهات اليومية المغرقة في الكآبة. نجدنا فجأة وجهاً لوجه أمام واجبات مرتبة سلفاً قبل ولادتنا، نسير عليها بخوف ونقوم بوصل نقاطها الصغيرة وكلنا ظن أنها رسمنا الخاص. ربما من أجل ذلك كله لم يعد لحياتي معنى، وربما لأني تجاوزت الثلاثين من عمري وما زلت في سكن داخلي للطالبات الصغيرات، أعمل من الصباح حتى المساء من أجل حفنة ليرات بالكاد تطعمني، وأرسل القليل إلى أهلي. أزوّر اسمي كل سنة من أجل ضمان غرفة مجانية وأعيش في قلق لا ينتهي أبداً خوفاً من افتضاح أمري. فكرت بالانتحار هرباً من لا جدوى حياتي، لولا دخولها المفاجئ في يومياتي. كان وجودها معي في نفس الغرفة يضفي على أيامي السعادة.

لم أستطع في البداية تحديد الأمور بشكل دقيق.

اعـــتقدت أن رقتها ولطافتها هما السبب، ثم اتضح أني لا أستطيع مفارقتها أبداً وإذا حدث وغابت عن الغرفة أحس بالفراغ القاتل يلون أيامي وأشعر بغصة حارقة عند ذهابها إلى الجامعة طوال النهار، فأعرض عـــنها قليلاً وأتجنب نظراتها، لكنها لا تتركني وحيدة فسرعان ما تبدأ بـــإطلاق نكاتهـــا وضحكاتها فتجلجل قلبي برنينها العذب وأعود إلى حـــالتي السابقة. استولت علي نهائياً و لم يخطر ببالي أن الأمور ستنتهي على هذا النحو. خفت من نفسي ومن مشاعري الغريبة والمبهمة، و لم أكـــن بالغـــبية كي لا أقدر الحالة. حارت الفكرة في داخلي وبدأت أراقب سلوكي. أقنعت نفسي أني اضخم الأمور وحاولت الابتعاد عن أفكاري السوداء تجاهها، و لم أعد أشاركها الفراش كما اعتدت سابقاً. تحاشـــيت عينيها ووجودها. ولكن إلى أين؟ كانت تأخذني رغماً عني إلى عوالمها وتضعني في دوامة الشوق واللوعة، ومما زاد الطين بلة مجيء ذلـــك الحقير الذي كانت تحدثني عنه ليل نهار. شعرت أن قلبي يتمزق بـــين أضـــلعي وهي تخبرني عن همساته الرقيقة ويده الدافئة وحضوره الأنيق. وددت لو أن الأرض تنشق وتبلعه لأخلص من الكابوس. كنت عـــلى يقـــين أن الرجل لا يريد المرأة دائماً سوى التمتع بها وأفضل ما تفعله المرأة هو أن لا تسلمه نفسها كما رددت أمي دائماً.

ازدادت الأمور سوءاً، بعد إحساسي بقرب فقدانها؟ لماذا؟ هل أنا طـــبيعية؟ كـــنت أضحك مما يحدث، لكن ذلك لا يعني أن الحقيقة لم تكن مؤلمة. في إحدى جلساتنا الطويلة التي كنا نقضيها معاً، ولأن الجو

حار جداً، خلعت قميص نومها وتمددت على فراشها متأففة من شدة الحـــر. لا أدري ما الذي حدث لكن قشعريرة لذيذة سرت في عروقي ورغـــبة حارقة اشتعلت بين فخذي وجعلتني أغيب عن الوعي لثوان. ذعرت من الفكرة وبصقت على الأرض. نظرت بحنو وقالت:

ـــ أنت من سيشطف الغرفة غداً، لأني مشغولة جداً.

ـــ خير إنشاء الله ؟

ـــ سيذهب غداً إلى الضيعة ليطلب يدي.

وصرخت ضاحكة وكأنها تملك الدنيا.

بـــدأت أشعر بالدوار والإقياء. وددت لو أفرغت ما في جوفي من أفكـــار وخيالات لأنتهي من خطيئتي وعذابي. هل ستكون لغيري ... يـــا للوهم الذي عشته.. غرقت في نشيجي وابتعدت عنها. ذهلت من رد فعـــلي وحاولت الاقتراب مني لتهدئتي. زجرتها بعنف، ووحيدة مع يأس حبي عدت إلى السرير أبكي خطيئتي..

ثوب نبيذي

إنه الفجر.

"ربمـــا، أو بالتأكيد لن أراه ثانية" حدثت نفسها ومصت شفتيها لتخفي حرقة نزيف قديم .

الوقـــت الضـــائع منها يلاحق نبضات القلب، عقرب الساعة لا يتوقف، تتجه نحو الساعة وتوقف العقارب:

"ليـــتوقف الـــزمن عـــند الـــلحظة، لتتوقف الكرة الأرضية عن الـــدوران.. وتحلق في الفضاء نجوم مطفأة وينتهي العالم تماماً كما بدأ ... بالنار "

دارت حـــول نفســـها، وبين الأثاث الفاخر بدت ساحرة بثوبها النبيذي الشفاف.

(لن يبصر جسدي بعد الآن ولن يشتهيني)

المـــرة الأولى والأخيرة، متشابهتان تماماً مثل نقطتين في دائرة لكن مســـافة هائلة تفصل بينهما. ستلقاه بهذا الثوب النبيذي الذي رآها فيه أول مرة، سيحمل صورها إلى التراب ويبقى ذيل ثوب نبيذي يرفرف

فـوق شاهدة قبره، وستذهب في المناسبات لتقف أمام القبر وتسأل : من كان هذا الرجل ؟

أسـرعت نحـو الهـاتف وطلبت سائق سيارها، الذي ذهل من سيدته، كيف تطلبه في وقت مبكر. ازداد ذهوله عندما حضر وذكرت له اسم المكان الذي ستذهب إليه :

ـ إلى أين سيدتي.

ـ إلى ساحة الإعدام، وصمتا معاً.

حـتى الآن لم تشعر بما سيحدث. فكرت بضرورة تماسكها أمامه كمـا يـليق بزوجة رجل مهم حتى أها لم تسأل ما السبب في كل ما يحدث، و لم اقتيد فجأة رغم مكانته العسكرية المهمة إلى السجن. حمى الحـرب والاغـتيالات لم تترك لإنسان فرصة التفكير. الامتياز الذي حصلت عليه، هو معرفة الساعة واليوم اللذين سيموت فيهما زوجها، والصـدفة وحدهـا من أذن بذلك، بالإضافة إلى الأموال السرية التي دفعتها للبعض.

عـندما وصلت السجن استقبلها أحد العسكريين، ركب بجوارها ثم طـلب من السائق الانعطاف نحو الساحة. كان واقفاً بصمت بهيئة عاديـة كرجل سيحتسي شايه الصباحي. نزلت من السيارة، ابتسمت لـه، قبلـته كما فعلت مراراً وعادت بحركة ميكانيكية نحو السيارة. عـندما دوى طلق ناري لم تبك. كان الذهول يعتريها، لم حدث كل ذلـك؟ عـنوة انتزعت من حضن أمها وتزوجت من رجل غريب لا

تعـــرف عـــنه إلا أهميته بين الناس. ولأنه مهم انتزعت من طفولتها، وفجـــأة ينـــتزع هذا الرجل منها لأنه مهم أيضاً، ولأنها زوجة مهمة وســـيدة مجتمع راقية فقد لعبت الدور كما يليق بها. نظرت إلى الرجل المندهش من برودة أعصابها :

ـــ أريد جثته.

ـــ عفواً سيدتي الأوامر لا تقضي بذلك.

نزل من السيارة وتركها مع ثوب نبيذي دون ورود وشاهد قبر. ومن شفتيها نزَّ سائل بلون ثوبها لم يلحظه العسكري وهو يدمدم :

ـــ يا لها من امرأة حديدية.

فهرس